رحلة إلى الحراش في شمس الأصيل

٣

نجيب محفوظ

ملخص ما نشر

بعد أن توهمت زهيرة أنها حققت حلم العمر.. بزواجها من عزيز الناحي اغتالها زوجها الثاني محمد أنور في ساحة الحسين. أسلمت الفاجعة عزيز الناحي إلى الموت.. أما جلال ابنها من زوجها الأول عبد ربه القران فقد أثرى وتجبر في تجارته وعقد قرانه على قمر صغرى بنات عزيز الناجي. عارضت أمها ألفت هانم في البداية ولكنها خضعت أمام اصرار ابنتها ووصية الجدة عزيزة هانم ساعة أن حضرتها الوفاة.

وقبل أن يكتمل هناء جلال بالزفاف مرضت قمر.. ذوت.. وذبلت.. ثم أسلمت الروح. كل شيء جميل في حياة جلال يتهشم.. خيالات غريبة تطوف به.. كل شيء عيث. يطرق باب التكية وأنغام الدراويش تنساب في غفوة الليل ولا يجيبه أحد.. هو ذاته لا يتوقع في خلوده الموت رداً!!

يسأله جبريل النفس عم يبحث وهو يقطع الحارة جيئة وذهاباً فيجيب بأنه «يجهد ما لا يبحث عنه ويبحث عما لا يجهده».. الكراهية تنمو في قلبه لكل شيء.. حتى لقمر ذاتها. لم يغفر لها أنها خذلته وأسلمت نفسها للموت!

وعندما يسأله والده عبد القران عن سبب تأخيره في دفع الاتاوة للفتوة تمكة العلاج بجوابه بقوله «أنا الفتوة يا أبي» كان هذا قراره. أصبح حقيقة بعدما تحدى الفتوة وهزمه والتف حوله الأنصار.. لم يكتف بعرش الحارة. تحدى الجميع «فتوات العطوف والدراسة والحسينية وكفر الزغاري وبولاق» وأصبح هو اليد وحده. انطلق الحرافيش يجلسون من جديد واغنم الوجهاء.. وانطلق عبد ربه القران يشر في البوظة بالمهد القادم. بالفجر الآتي.. ولكن الحال هو الحال لا شيء يتغير. يطالبه الأب السكير بأن يحقق أحلام الناس وبعيد عهد الناجي ولا حياة لمن تنادي.. أنهمك يجمع الفرات ويشيد العمارات والقلاع. ويفتني التحف.. ورغم أنه كان يطمح أصيل إلى الزهد.. كانت ثمة قوة مجهولة غامضة تسوقه.. قوة حولته إلى التلق والخوف ولكن لمن يجمع كل هذه الأموال.. واجهه السؤال وقد ظل بغير زواج.. ثمة ابتسامة ساخرة مغرية تسكنها دائماً له واحدة من فتيات الليل. شقراء جميلة بعشتها الوجهاء.. ابتسامتها تلطف خواء وحدته ولكنه يقاوم..

ولا يريد أن يستجيب.. منذ أن رحلت قمر وهو يكبح شهوات.. يقهرها في خضم الاقتتال والبناء والاقتناء.. ويطويها في تلافيف الاحساس الدائم بالملل!!

٤

وذات مساء استأذنت زينات الشقراء في مقابلته. استقبلها في بهو الضيوف. تركها تتبهر بالأثاث. بالتحف بالقناديل المزركشة. تجردت من ملابسها وبرقصها. جلست على ديوان.. قطعة من الفتنة المسلحة، وتساءلت برشاقة.

- ترى كيف أعامل حضورى؟.. أقول مثلا إنني أريد تأجير شقة في عمارتك الجديدة؟

فوجد نفسه يجاملها قائلا

- لن يطالبك أحد بتعليل..

فضحكت راضية وقالت بصراحة

- قلت لنفسي فلأزره ما دام يخفل علينا بالزيارة..

شعر بأنه يهبط أولى درجات الإغراء، ولكنه لم يخفل بذلك وقال

- حللت أهلا وسهلا!

- شجعني لطفك الذي يقابلني به كل أصيل..

ابتسم. وتردد سؤال خلف الابتسامة إلام آل حال قمر في قبرها اليوم!. وسألته بجرأة عجيبة

- ألم أعجبك؟

فقال بصدق

- إنك فخمة..

- وهل مثلك يشعر ولا يفعل؟!

تنهدت في حيرة

- غابت عنك أشياء..

- إنك أقوى الرجال وأغنى الرجال فكيف تنام كما ينام الفقراء؟

فقال ساخرا

- الفقراء ينامون نوما عميقا!

- وكيف تنام أنت؟

- أتعل لا أنام!

فضحكت بعذوبة وقالت

- سمعت من أهل العلم أنك ما شربت في حياتك قرعة ولا دخنت سيجارة ولا لامست امرأة، أهذا صحيح؟

لم يثر. لماذا يجيب ولكنه شعر بأنها ستتحقق ما تريد أما زينات فواصلت

- أقول لك إن الحياة ليست إلا الحب والطرب

تساءل متظاهرا بالدهشة

- حقا؟

- ما عدا ذلك فإننا نتركه ورائنا للغير!

فقال باستعاض

- ونترك أيضا الحب والطرب!

- كلا. إنهما يتعلقان بالجسد والروح ولا يرتهنها أحد!

- يالها من لعبة مخيفة..

فقالت بحرارة

- لا عشت يوما بلا حب أو طرب..

- إنك امرأة مدهشة..

- امرأة ركني!

- لا يهمك الموت؟!

- إنه علينا حق ولكني لا أحب سيرته..

حق!. حق!. وسألها

- أتعرفين شيئا من سيرة شمس الدين الناجي؟

فقالت بفخار

- طبعا، من حارب متحديا الكبير..

- تحدى الكبير بعناد خالد

فقالت بنعومة

- السعداء حقا من ينعمون بشيخوخة هادئة!

فقال.. بتحد

- السعداء حقا من لا يعرفون الشيخوخة!

فانقبضت لتغيره، وقالت بإغراء

أنت لا تملك إلا هذه الساعة..

فقال ساخرا

- موعظة مناسبة لمقدم الليل..

فأغمضت عينيها مرهفة السمع حتى وضح زفيف الريح في الخارج. وسمع هطل الأمطار فوق النوافذ المغلقة.

٤

سرعان ما صارت زينات الشقراء عشيقة لجلال عبد ربه الناجي. دهش الناس ولكنهم قالوا هو خير على أي حال من سيئ الذكر رحيد. ولجنبها عشاقها القدامى فأصبحت له وحده. علمته كل شيء. أنضمت إلى تحف الدار قرعة مذهبة وجوزة مدلدشة. لم يأسف على شيء. وقال إن للحياة مذاقا لا بأس به. وأحبت زينات حبا ملك عليها نفسها. وداعبها حلم غريب أن تصبح حليلة له ذات يوم. ومن عجب أن حبه القديم لقمر بعث أيضا كذكرى خالدة مفعمة بالعذوبة أدرك إنه لم يهجرها أبدا. لا شيء يزول. ولا حب أمه. سيظل مدينا لرأس أمه ووجه قمر بمعرفة مأساة الحياة. ولحن الحزن الخالد المردد تحت سطح الأنوار الباهرة

والانتصارات المائقة . ولم يعرف لزينات عمرا . لعلها تماثله فى عمره أو تكبره . وسيظل ذلك سرا . وقد تعلق بها . أهو حب جديد ؟ . وتعلق بالقرعة والجموزة . إنه مدين لها أيضا بفانتن جوهرية مثيرة للفرح والقلق . ولا يرى بأسا من التسليم للتيار .

ورأى أباه « المعلم » عبد ربه يخلو إليه باهتمام . ويسأله

- لم لا تتزوج ؟ .. أليس الحلال أفضل من الحرام ؟

فلم يجر جوابا فقال عبد ربه

- ولتكن زينات كما فعل عاشور ..

نهز رأسه منكرا فقال الأب

- على أى حال لقد صدقت عزيتى أنا على الزواج !

فقال جلال بذهول

- إنك يا أبى فى السنين !

لم لا ؟!

وضحك عبد ربه ثم قال

- صحتى حسنة بالرغم من كل شئ . واعتمادى بعد الله على المعلم عبد الخالق العطار ..

- ومن العروس ؟

فقال بمباهاة

- بنت زوبلة الفسخانى . بنت حلال فى العشرين من عمرها ..

فسأله باسما

- أليس الأفضل أن تختار سيدة تقاربك فى السن ؟

- كلا . لا يرجع الشباب إلا الشباب ..

فتسم جلال

- فليسعدك الله يا أبى ..

وجعل عبد ربه ينوه بالعطار وسحره . وقدرته على رد الإنسان إلى شبابه ..

زفت فريدة الفسخانى إلى المعلم عبد ربه . وأقاما فى جناح بالقلعة دار جلال الفخيمة . وطيلة الوقت كان جلال يفكر فى سحر المعلم عبد الخالق العطار . إنه شريكه وصاحبه . ممن يحسنون التودد إليه . ودعاه ذات ليلة إلى داره فانسطلا معا . وتسليا بتناول الفاكهة والحلوى وقال له جلال بجدية

- ما يدور بيننا موش ..

فوعد المعلم عبد الخالق بذلك سعيدا بالمنزلة الجديدة التى أنزله الفتوة فيها . وسأله جلال

- علمت أنك ترد الكهول إلى الشباب ؟

وبابتسامة تنفة أجاب العطار

- بعون الله تعالى .

فقال جلال باهتمام

- لعله أيسر لك أن تحافظ على الشباب ؟

- هذا مسلم به

فتنور وجه جلال بالارتياح وتمتم

- لعلك أدركت ما تعنيه دعوتى لك يا معلم عبد الخالق .

فتنكر العطار مليا منهيا ثقل الأمانة وقال :

- ولكن العطارة ليست بكل شئ . لابد أن نسبقها وتسايرها إرادة حافلة ..

- ماذا تعنى ؟

فقال عبد الخالق بحذر .

- لابد من الصارحة فهل تشعر بأى ضعف من أى نوع كان ؟

- إنى فى تمام العافية !

- عظيم . عليك أن تتبع نظاما دقيقا لحد التقديس ..

- تكلم ولا تلغز !

- الطعام ضرورى ولكن المغالاة ضارة .

فقال جلال بارتياح

- هذا ما تتطلبه تقاليد الفتوة الرشيدة ..

- الشرب قليله منشط وكثيره ضار

- مقبول .

- الجنس يجب أن تتم ممارسته فى نطاق الطاقة بلا تعمل ..

- لا بأس

- الإيمان عظيم الفائدة

- جميل

فقال المعلم عبد الخالق

- عندما يتوافر ذلك كله نجئ وصفة العطار بالمعجزات ..

- أهى مجربة ؟

- بشهادة كثيرين من الوجهاء ، بعضهم يحافظ على شبابه حتى يرعب من حوله !

فلمعت عينا جلال بضوء بهيج . فقال عبد الخالق

- بتصبحنى وبإذن الله يجب أن يعمر الإنسان حتى المائة وليس ما يمنع من أن يعيش بعد ذلك حتى يتمنى قدوم الأجل !

فابتسم جلال بشئ من الوجوم ثم تساءل

- وبعد ذلك ؟

فقال العطار باستسلام

- الموت علينا حق ..

ولعن جلال فى سره الشيطان وقال إنهم متفقون أجمعين على تقديس الموت ..

وذات ليلة سألته زينات الشقراء وهما فى غاية الانسجام والانبساط

- لم لا تحقق آمال الحرانيش ؟

فرمقها بدهشة وسألها :

- ماذا يهمك من ذلك ؟

تقبلته وقالت بإخلاص :

- كى تطارد الحسد فالحسد قتال !

فهز منكبيه ، باستهانة وقال :

- أصارحك بأنى أحتقر الناس ..

- ولكنهم مساكين !

- لذلك أحتقرهم !

وتفلص وجهه الجميل تقززا ثم قال :

- لا تشغلهم إلا لقمة العيش ..

فقالت بإشفاق :

- أفكارك تخيفنى ..

- لم لا يسلمون للجوع كما يسلمون للموت ؟!

اجتاحتها ذكريات صباها مثل عاصفة ترابية خانقة فقالت :

- الجوع أفظع من الموت ..

ابتسم مسبلا جفنيه على نظرة احتقار باردة .

مضت الأيام وجلال يزداد قوة وجمالا وبهاء . يمشى الزمن على أديمه غير تارك أثرا كأنه الماء يمشى على مرآة مصقولة . زينات نفسها تتغير كما يتغير كل شئ من حولها ، رغم عنايتها الكبيرة بجمالها . وأدرك جلال أنه يخوض بعناد المعركة المصيرية الحقيقية المقدسة . وقال لنفسه إنه من المؤسف حقا أن الختام حتم ، قد يؤجل بعض الوقت ولكن أين منه المفر ؟

وتوثقت الصداقة بينه وبين المعلم عبد الخالق العطار . وكان من رأى المعلم أنه لولا فداحة تكاليف الوصفة لصارت حارتهم حارة المعمرين . وفكر جلال أكثر من مرة فى أن يشرك زينات فى الوصفة السحرية ولكنه كان يتراجع عن فكره دائما .

لعله بدأ يخشى سيطرتها وسحرها فكره تحصينها ضد الزمن

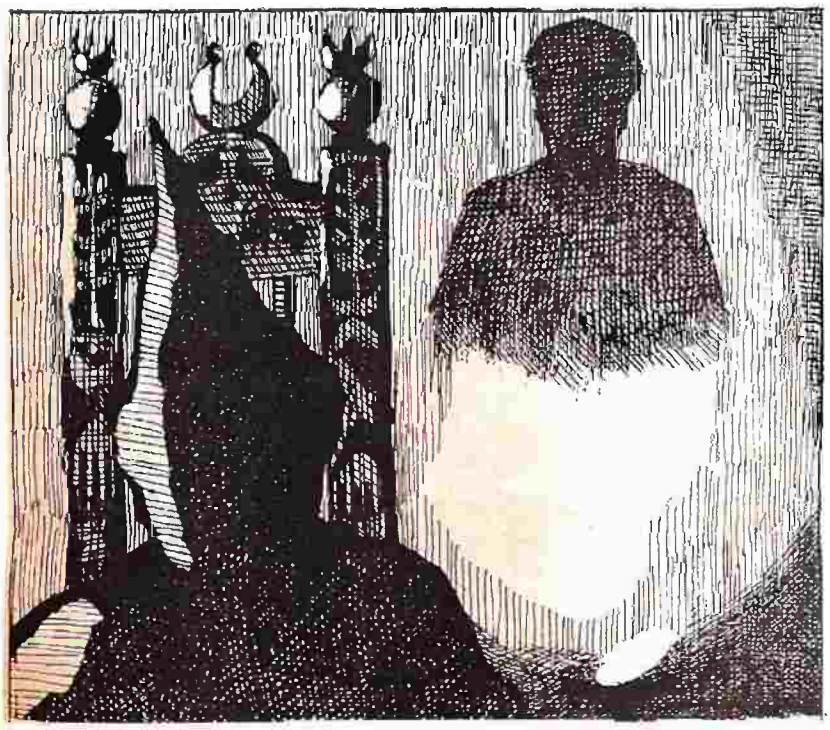

ريشة : محمد ابراهيم

الجبار. كان يحبها أكثر الوقت ولكن ثمة لحظات يود أن يتقدم ويصفعها فى أقرب مزيلة. لم تكن علاقته بها بسيطة وواضحة. كانت تتداخل فى شبكة معقدة من العلاقات تتداخل مع ذكرى أمه، وذكرى أبيه، عداوته للموت، كرامته، وتعلقه الأسر بها. وكان ما يخيفه أكثر من سواه ما يبدو عليها أحياناً من طمأنينة راسخة وثقة بالنفس لا حدود لها. هاهى ترهق بالشراب والسهر، ويلتهب جلدها بالمساحيق، فهل تلاحظه خفية بالجهد؟!

٥٠

وسأل مرة المعلم عبد الخالق:

- سمعت ولا شك عن حكاية عاشور الناجى؟

- حكاية محفوظة يا معلم..

فقال جلال بعد تردد:

- إنى أعتقد أنه ما زال حياً!

فذهل عبد الخالق ولم يدر بماذا يجيب. كان يعلم أن عاشور ولى عند قوم ونص للبيط عند آخرين، ولكنهم يسلمون جميعاً بموته. واصل جلال قائلاً:

- وأنه لن يموت!

قال عبد الخالق:

- كان عاشور رجلاً صالحاً والموت لا يخطىء الصالحين..

فتساءل جلال محتجاً:

أينبغى أن يكون الإنسان شريراً كى يخلد؟

- الموت حق، ولكن لا يتطلع إلى الخلود مؤمن!

- أعلى يقين أنت من ذلك؟

فخاف عبد الخالق وقال:

- هكذا يقولون والله أعلم..

لم؟

- أعتقد أن الخلود لا يتاح لإنسان إلا بمؤاخاة الجن..

فاشتعل جلال باهتمام داهم حاد وقال:

حدثنى عن ذلك..

- مؤاخاة الجان، الخلود واللعنة الأبدية، التحام الإنسان بالشيطان إلى الأبد..

فتساءل جلال وهو ينادى فى الاهتمام:

- حقيقة هذا أم هذيان؟

فتردد عبد الخالق ثم قال:

- لعله حقيقة!

زدنا تفسيراً..

- لماذا؟.. أتذكر حقاً فى تلك المغامرة؟

فضحك جلال ضحكة عصبية وقال:

- ليس إلا أنى أحب أن أعرف كل شىء..

فقال عبد الخالق ببطء:

- يقال.. إن.. شاور..

فتساءل جلال:

- ذلك الشيخ المجهول الذى يدعى قراءة المستقبل؟

- ذلك عمله الظاهر، ولكنه ينطوى على أسرار مرعبة..

- لم أسمع عن شىء من ذلك..

- إنه يخاف المؤمنين...

- وهل تصدق ذلك؟

- لا أدرى يا معلم ولكنه أمر لعين..

- الخلود!

- إنك تخاف الخلود!

- يحق لى ذلك، تصور أن أبقى حتى أشهد زوال دنياى، يذهب الناس رجالاً ونساء، وأبقى غريباً وسط غرباء، ألم من مكان إلى مكان، أبيت مطارداً أبدياً، أجن، أتمنى الموت..

- وتحافظ على شبابك إلى الأبد؟

- وتنجب أبناء وتفر منهم، وكل جيل تعد نفسك لحياة جديدة وكل جيل تبكى الزوجة والأبناء، وتتجنس بجنسية الغربة الأبدية لا يربطك بأحد اهتمام أو فكر أو عاطفة..

وهتف جلال:

- كفى..

وضحك الرجلان طويلاً. وتمتم جلال:

- يا له من حلم...

٥١

كان شاور يقيم فى بدروم كبير يقع أمام حوض الدواب مباشرة. يتصدد الحجرات، وبه للنساء قاعة استقبال، وللرجال قاعة. وهو شخصية خفية لم تقع عليها عين. يستقبل مريديه فى حجرة مظلمة فى الليل، فيسمع صوته ولا يرى له أثر. أكثر زبائنه من النساء ولكن المشكلات قد تدفع بعض الرجال إلى حجرته المظلمة يسأل ويجيب ويقدم الخلران عادة إلى جارية حبشية تدعى حواء.

أرسل جلال فى طلبه ولكن طلبه قوبل بالرفض، وقيل له إنه يفقد خواصه الساحرة خارج حجرته. كان على جلال إذن أن يتستر، ويستلل بليل إلى مقامه، متأخراً حتى يضمن خلو المكان. مضت به حواء إلى حجرة. أجلسته على شلتة طرية وذهبت. وجد نفسه فى ظلام حالك. حملق فلم ير شيئاً كأنما فقد الزمان والمكان والبصر. وقد نبه عليه أن يلوذ بالصمت، ألا يبدأ بالكلام. أن يجيب على قدر السؤال مضى الوقت ثقيلاً خانقاً. كأنه نسى تماماً. أى سخرية. ولم يلق مهانة كهذه منذ تبوأ عرش الفتونة. أين جلال الجبار حتام يصبر ويتنظر؟. الويل للإنس والجن إذا تخضعت مغامراته عن لا شىء..

٥٢

انطلق من الظلام صوت عميق مؤثر هادىء يسأل:

- اسمك؟

تنهد فى ارتياح وأجاب:

- جلال الفتوة

- أجب على قدر السؤال، اسمك؟

توسع صدره وأجاب:

- جلال عبد ربه الناجى

على قدر السؤال، اسمك؟

فأجاب بجدة:

- جلال

- بصوت طبيعى، اسمك؟

فسيطر على انفعالاته وقال:

- جلال

- اسم أمك؟

غل دمه بسرعة مخيفة. رأى رغم الظلمة ألوانا جهنمية. سأل الصوت بتحد:

- اسم أمك؟

أجاب كالظبأ:

- زهيرة.

- ماذا تريد؟

تردد قليلاً ولكن الصوت لم يمهله لتساءل:

- ماذا تريد؟

- أن أعرف ما يقال عن مؤاخاة الجن

- ماذا تريد؟

- لقد قلت

- ماذا تريد؟

فاجتاحه الغضب وتساءل متذمراً

- ألم تعرف من أكون؟

- جلال بن زهيرة.

- أستطيع أن أطحنك بضربة واحدة

- كلا

قبلك بكل ثقة وطمأنينة فهتف جلال:

- تريد أن تجرب؟

فتساءل الصوت ببرود ولا مبالاة:

- ماذا تريد؟

أجاب متنازلاً عن كل شىء:

- الخلود

- لماذا؟

- هذا شأنى

- المؤمن لا يتحدى إرادة الله.

- أريد ذلك وأنا مؤمن..

- إن ما تطلب خطير.

- لكن.

- ستتمنى الموت ولن تناله.

- فقال بقلب خفاق:

- ليكن

سكت الصوت. هل ذهب؟ ورفع مرة أخرى فى الضياع. تلهف عليه بأعصاب ممزقة. حملق بقوة ولكنه لم ير شيئاً

٥٣

ورجع الصوت بعد عذاب. تساءل:

- أأنت على استعداد لتقديم ما يطلب منك؟

- أجاب بلا تردد:

- أجل

- أن تتوقف على جاريتى حواء كبرى عباراتك للتكفير بريعها عن ذنبى

تفكر قليلاً ثم قال:

- أوافق

- أن تشيد مئذنة ارتفاعها عشرة طوابق

- فى الزاوية؟

- كلا

- زاوية جديدة؟

- كلا مئذنة مستقلة.

ولكن..

- دون مناقشة.

- أوافق.

- عش عاماً كاملاً فى جناحك، لا ترى أحداً. ولا يراك إلا خادمك، تجد ما يذهلك عن نفسك. فانقبض قلبه ولكنه قال:

- أوافق

- فى اليوم الأخير يتم الالتحام بينك وبين الجنى ثم لا تذوق الموت أبداً.

٥٤

أوقف جلال عبد ربه الناجى كبرى عباراته على حواء الجارية الحبشية. اتفق مع مقاول على تشييد المئذنة العملاقة فى إحدى الخرابات، وقد امتثل الرجل لما يطلب منه طمعاً فى المال وخوفاً من البطش. وعهد بالعصابة إلى وكيله مؤنس العطار مزوداً إياه بكافة الإرشادات. أعلن عن عام اعتزاله معللاً بأنه يرغب بنذر نذره. وقبع فى جناحه يسجل الأيام كما فعل سجاعة فى مهجره. متجنبا القرعة والجوزة وزينات الشقراء. ومنى نفسه بالفوز فى أكبر معركة خاضها بشر.

البقية فى العدد القادم